

باب الثامن

دروس  
من التاريخ

obeikandi.com

## التدبير وليس المناطحة والتهور

لمولانا جلال الدين الرومي (١٢٠٧-١٢٧٣م) مقام كبير في نظر المسلمين . ولا يزال «المنثوى» الذي ألفه - من ٢٧ ألف بيت شعر - يتمتع بشعبية كبيرة في أوساطهم . وظل العلماء لعدة قرون يقرأون هذا الكتاب كإحدى أهم كتب المعرفة والاستلهام .

ودمر التتار بغداد سنة ١٢٥٨م ، ففضوا على الدولة العباسية ، وفرضوا على العالم الإسلامي حكومتهم الظالمة . ومولانا الرومي -الذي كان يبلغ من العمر آنذاك ٥٠ سنة تقريباً- قدّم للمسلمين من خلال «المنثوى» دروساً روحانية وأخلاقية وسعى إلى النهوض بهم .

وفي الوقت نفسه حاول مولانا الرومي هداية مسلمي عصره إزاء القضايا التي كانوا يعانون منها . فقال للمسلمين -عبر الحكاية والرمز- ما ينبغي لهم وما لا ينبغي .

ومن الحكايات المعبرة التي أوردها : حكاية الأسد والأرنب ، التي وردت بتفصيل في «الكتاب الأول» من «المنثوى» ، وخلاصتها : أن أسداً كان يسكن غابة ، وكان يهاجم الحيوانات كل يوم لإشباع جوعه ويلتهمهم ، وكانت النتيجة أن كل الحيوانات كانت تعاني من الذعر والخوف بصورة دائمة ، ثم اهتدت إلى حلّ عرضته على الأسد ، وهو ألا

يهاجمها بل هي سترسل له طواعة حيواناً واحداً كل يوم، فرضي الأسد بالاقتراح. وأخذت الحيوانات تعمل بهذا الحل، وكانت تقرر كل يوم بالقرعة الحيوان الذي سيصبح غذاء الأسد، وكل من أصابته القرعة ذهب إلى الأسد. وهكذا أخذت الحيوانات تعيش بالأمن والطمأنينة داخل الغابة، إلى أن أصابت القرعة أرنباً. وكان هذا الأرنب قد فكر طويلاً في الأمر قبل ذلك اليوم، وقرّر في قرارة نفسه أنه لن يسمح للأسد بالتهامة، بل سيقضي على الأسد بتدبيره وحكمته.

وهكذا وصل الأرنب -طبق خطة مدروسة- إلى الأسد بعد ساعة من الموعد المحدد للوصول. وكان الأسد جائعاً بل وغاضباً نتيجة التأخير، وزداد غضبه حين رأى حجم الأرنب الصغير. وقال له الأرنب بكل أدب ورقة: «سيدي لقد جاء أسد آخر إلى مملكتك، وكانت الحيوانات قد أرسلت لغذاءك اليوم أرنيين، ولكن الأسد الآخر هاجمنا فتمكّن من الأرنب الآخر، أما أنا فتمكنت من الهرب والحضور إليك». والآن تحول غضب الأسد إلى الأسد الآخر، فصاح قائلاً: «من هذا الأسد الذي تجرأ على الدخول إلى غابتي؟ اصطحبني إليه لأقضي عليه». وخرج الأسد مع الأرنب، فأخذه الأرنب من مكان إلى آخر إلى أن انتهى به إلى بئر، فقال له: «سيدي ذلك الأسد موجود بداخل هذا المكان وما عليك إلا أن تلقي نظرة عليه».

فأطل الأسد فوق البئر فرأى عكسه في الماء، وظنّ أن ما قاله الأرنب صحيح، وأن أسداً آخر موجود حقيقة داخل البئر، فزأر، وخرج زئير الأسد الآخر. ولم يحتمل الأسد أن يأتي «أسد آخر» إلى مملكته، فوثب على الأسد المفترض، ومات داخل البئر.

وهكذا قضى الأرنب بتدبيره على عدو كالأسد . ويقول مولانا الرومي في نهاية الحكاية : إن شَبَاكَ تدبير الأرنب كان شركاً للأسد . فما أعجب الأرنب الذي اصطاد أسداً!!

كانت هذه هداية بلغة الحكاية ، قدّمها مولانا الرومي لمسلمي عصره ولم يحثهم على المناطحة ، ولم يقل لسكان الغابة أن يتحدوا للهجوم على الأسد ، وأنهم لو قضوا عليه فسيكونون من الأبطال الغزاة ، ولا حرج لو أهلكهم الأسد فهم سيلتحقون بقافلة الشهداء في تلك الحالة ، وأنه من ظفر بدرجة «شهيد» فقد ظفر بمقام عظيم .

وعلى العكس من هذا وجّه المولانا الرومي مسلمي عصره نحو التدبير الحكيم ودلهم على طريق الحياة بدلاً من طريق الموت . ويجب على من يتبع الحكمة أن يقنع بالصغر والهوان في البداية ؛ لكي يصل في النهاية إلى العظمة والفوز الكبير .

ونصيحة مولانا الرومي نافعة لحالنا تماماً كما كانت نافعة لماضينا .



## المطلوب: «عشرون سنة» لإختراق كبير

■ «اكتشف كولومبوس القارة الأمريكية» . . . يمكن لأحدنا اليوم أن يذكر هذه الواقعة بلسانه في أقل من ست ثواني، ولكن كولومبوس أنفق ٢٠ سنة حافلة بالمشاق من عمره لتحقيق هذه الواقعة .

وقد ولد كريستوفر كولومبوس بإيطاليا سنة ١٤٥١م، وتوفي بأسبانيا سنة ١٥٠٦م . وكان اكتشافه للقارة الأمريكية نتيجة فرعية لمحاولته اكتشاف طريق بحري من أوروبا إلى الشرق . وطلب كولومبوس من الملك البرتغالي جون الثاني سنة ١٤٨٤م أن يساعده على هذه الرحلة البحرية، ولكن الملك البرتغالي لم يعتن به؛ لظنه أن خطة كولومبوس عقيمة وبدون جدوى . ثم توجه كولومبوس إلى ملكة قشتالة (إيزابيلا) ولكنها لم تردّ بصورة إيجابية أول الأمر على طلبه، ولكن كولومبوس استمر في جهوده وإلحاحه إلى أن وفرت له الملكة السفن والأمتعة الضرورية .

وبدأ كولومبوس في جهوده وإلحاحه إلى أن وفرت له الملكة السفن والأمتعة الضرورية .

وبدأ كولومبوس رحلته الأولى بثلاث سفن في ٣ أغسطس ١٤٩٢م، ولكنه فشل في الوصول إلى الشاطئ الأمريكي إلا أنه واصل جهوده رغم كل المشكلات والمحن .

وأخيراً - في رحلته الرابعة سنة ١٥٠٤م - تمكّن كولومبوس من اكتشاف «العالم الجديد». وكان العالم قبل كولومبوس ينقسم إلى جزأين، ولكن اكتشاف كولومبوس دمج العالمين «القديم» و«الجديد» في عالم واحد، وكان هذا اكتشافاً عظيماً، ولكنه لم يتحقق إلا حين استمر كولومبوس ورفاقه ٢٠ سنة يحاولون تحقيق خطتهم دون أن يفقدوا الأمل.

وهذا هو طريق النجاح في هذا العالم. فكل نجاح هنا يطلب «٢٠ سنة» من الجهد والتفاني وبدونها لا يمكن الوصول إلى نجاح كبير هنا. كل نجاح كبير في هذا العالم يتحقق بعد جهد طويل، فيجب على الإنسان أن يرضى بالقليل في يومه الحاضر لكي يظافر بالكثير في غده القادم.

■ نيل أرمسترونغ هو أول إنسان وصل إلى القمر، ونزل من مركبة تسمى «الصقر»، ووضع قدمه على سطح القمر. وكان الاتصال قائماً بين الأرض والقمر في ذلك الوقت، وأول رسالة بعث بها أرمسترونغ بعد نزوله على القمر هي: «هذه خطوة صغيرة لواحد من البشر ولكنها وثبة عملاقة للبشرية».

وكان أرمسترونغ يعني بهذا القول: أن نزوله على القمر هو نزول إنسان واحد على القمر في ظاهر الأمر، ولكنه في حقيقته بداية عصر كوني جديد. فقد ثبت بنزول إنسان واحد على القمر أن من الممكن لأي إنسان آخر أن يسافر إلى القمر. وسوف يتقدم هذا الاكتشاف في السنوات القادمة إلى أن يحين وقت سفر عامة الناس من كوكب إلى آخر، تماماً كما يسافرون على وجه الأرض اليوم من مدينة إلى أخرى.

وكل عمل عظيم في هذا العالم يحدث هكذا . فرد واحد أو عدة أفراد يضحون ليصلوا إلى اكتشاف جديد ، وبالتالي يفتحون باباً جديداً للمسيرة البشرية . وهذا العمل الرائد صعب للغاية وهو بمثابة زحزحة جبل من مكانه ، ولكن بعد تحقيق هذا العمل الرائد كل شيء يهون ، فينكشف أمام عامة الناس طريق رحب جديد ليواصلوا المسيرة بأعداد كبيرة .

وحيث ينشر الفلاح البذور في حقله فكأنها خطوة صغيرة في عالم الزراعة ، ولكن بهذه الخطوة الصغيرة تبدأ مسيرة الفلاح الزراعية إلى أن نشاهد في حقله فصلاً زراعياً متكاملًا . وينطبق هذا على كل الشؤون البشرية سواء أكانت متعلقة بالزراعة أو البستنة أو أي شيء آخر من شؤون الحياة .



## هل سوف نصبح آثاراً نُزار ؟

ذهبتُ منذ مدة إلى مدة إلى مدينة أجمير، حيث مقبرة الإمام خواجه معين الدين الجشتي . وهذه المقبرة الكبيرة يزورها مئات الناس يومياً. وتعتج المدينة الصغيرة بأكثر من مليون زائر من الخارج . لقد شاهدت أن المقبرة يقصدها كثيرون من غير المسلمين، كما شاهدت أن عدداً من الأوروبيين يجولون داخل المقبرة بكاميراتهم ومنظاراتهم . وهؤلاء هم السُّياح الذين يقصدون هذه المقبرة تماماً كما يذهبون إلى الأماكن الأثرية الأخرى . وقد رأيتهم يحملون في أيديهم كتباً عن الآثار في الهند، فمقبرة الإمام الجشتي هي الأخرى إحدى الآثار الهندية الهامة في نظرهم، فوجب عليهم مشاهدتها وتصويرها .

وقد هزني هذا المنظر واتخذته عبرة . لقد كان الإمام الجشتي (٥٣٥-٦٣٣هـ) قبل ثمانية قرون وجوداً ثورياً للإسلام، والآن أصبحت مقبرته من الآثار . لقد أقام الإمام الجشتي بهذه المدينة ٤٥ سنة، وأسلم على يديه تسعمائة ألف شخص، وكانت شهرته تنتشر من أجمير إلى دهلي العاصمة . وأجمير التي كانت عاصمة الملك الهندوسي جاي تشاند أصبحت أجمير الجشتي . ولكن مقام الإمام الجشتي ليس بالنسبة للعالم اليوم أكثر من أثرٍ قديمٍ عمره ثمانية قرون تجب رؤيته على المهتمين بالآثار القديمة .

هذه الآثار الإسلامية تتحدث بلسان حالها عن مركز الإسلام في دنيا اليوم . لقد انتهينا إلى «آثار» تزار . نحن لسنا عنوان العصر، بل نحن عنوان التاريخ القديم، كان وجودنا يفجر ثورة في العالم قبل ثمانية قرون، ونحن اليوم آثار من الحجر، يلقي عليها السباح نظرة عابرة حتى يظنوا أنهم قد استكملوا رؤية أهم الآثار المدونة في كتبهم . وما أعجب أن الأمة التي لُقِّبَت بـ «خير الأمم» تصل إلى هذا المقام .

نحن مطالبون بالتفكير فيما إذا كنا راضين بالمقام الذي انتهينا إليه في مطاف الزمن . ولو كنا نرضى بالعيش كأثار على هامش الحياة، فلا جدال ولا قضية . . فنحن لسنا مطالبين حتى بأي عمل . ولو رضينا بوجودنا كأثار فالعالم لن يتحملنا فقط، بل سوف يضعنا في معارض زجاجية .

أتذكر منظراً في لكتناؤ حيث توجد حديقة باسم «بيلي غارد» وكانت بيلي غارد هذه قلعة الملك (واجد على شاه) آخر ملك مسلم على لكتناؤ، وقد انهزم عقب معركة مع الإنجليز، وكان الذي يدير المعركة مع الكولونيل بيلي، وبإسمه عرفت هذه الحديقة العامة . وكان الإنجليز قد ضربوا القلعة بالمدافع الثقيلة حتى تهدمت جدرانها، وكان هناك مسجد داخل القلعة، وقد أصيب هو الآخر في هذه المعركة، وتضعضت مناراته وحدثت شقوق في جدرانه . واليوم لو شاهدت مسجد بيلي غارد لوجدت أن منارتيه الكبيرتين مربوطتان بالحديد . لقد ربطوا المنارتين بالحديد، لكي لا يتساقطا نتيجة التصدع الذي تسببت فيه القنابل التي دكتها، فيقوموا مقامها كأن شيئاً لم يكن .

وهذا المنظر يحمل لنا عبرة . فمعنى هذا أن منارة الإسلام - أو المسجد - حين كانت تقف موقف التحدي من الأعداء لم يتوانوا عن ضربها بالمدافع ، ولكنها حين أصبحت أثراً من الأثار القديمة أصبح محافظوها هم عين الذين كانوا يريدون تدميرها من قبل .

ولذلك أقول لكم أننا لو كنا قانعين بأن نعيش في سوق الحياة كسلع وآثار ، فلا ضرورة للقيام بأي عمل أو حتى بالشعور بأي خوف ، وذلك لأن العالم مستعد لوضعنا في فاترينات الزجاج كأثار قديمة .

بعض الناس يطمئنون بأن الدّين موجود وبخير حين يجدون الناس يرتادون تكايا صوفية ، وبعض الناس مسرورون لأنهم يزيدون من عدد المصلين في الجوامع ، وبعضهم يعتبرونه انتصاراً للإسلام لو فتحوا بعض الكتاتيب وجمعوا الأطفال وعلموهم بعض كتب الدين . إن كل هذه الأعمال أعمال دينية مطلوبة ومقبولة ، وأنا أشرك سعادة الذين قاموا بها ، ولكننا لو اقتنعنا لأنفسنا بهذا المقام ، فمعنى ذلك أننا نفتتح بمقام الخفاش من حركة الحياة . هل خلق الله هذه الدنيا الواسعة لكي نسلم أمرها للآخرين ونجلس في زوايا الجوامع وتكايا الصوفية؟ هل جاء دين الله لإيصالنا إلى مركز الخفاش من الحياة؟

إن الزمن قد حكم علينا بأن نصبح في مقام الأثار ، أو على الأكثر في مقام الخفاش من الحياة . فهل نحن سنقبل بهذه الحال؟ هل سنرضى بحكم الزمن هذا؟

لقد خلق الله عالمه واسعاً وفسيحاً، ودينه تحفل بأنشطة هائلة .  
هل لا مجال لدين الله في أنشطة دنياه؟ هل الإسلام لا علاقة له  
بالمؤسسات العلمية؟ هل الإسلام بمعزل عن البطولات الفكرية؟ هل  
الاكتشافات العلمية لم تخلق مشكلات في وجه دين الله، وفي وجه  
المسلمين؟

أعتقد أنها ستكون غفلة كبرى لو أجبنا على هذه الأسئلة بالنفي .  
إنها ليست غفلة فحسب وإنما هي جريمة ، فمعناها أننا نحدد مجالات  
دين الله فراراً من امتحان الحياة العملي .



## قدوة لا سبيل إلى قهرها

قضى ابن خلدون (١٣٣٢-١٤٠٦م) جزءاً من حياته بالشام، وكان داخل دمشق حين حاصرها تيمور سنة ١٤٠٠م. وبدأ حوار بين تيمور وأهل دمشق خلال الحصار، وخلال هذا الحوار أبدى تيمور رغبته في اللقاء بابن خلدون الذي كانت شهرته -كمؤرخ- قد جابت الآفاق. وظن أهل دمشق أن تيمور يميل إلى الصلح، فربطوا ابن خلدون بحبال وأنزلوه إلى خارج سور المدينة، وهكذا وصل ابن خلدون إلى معسكر تيمور وأقام به سبعة أسابيع. وأكرمه تيمور وسمح له حسب رغبته بالذهاب إلى مصر، ولكن تيمور كان يرمي وراء إكرامه للمؤرخ ابن خلدون تحقيق مصالحه، فكان يحلم بمزيد من الفتوح. . فطلب أن يعد له خريطة مفصلة للشمال الأفريقي، ولم يكتف تيمور بالتحدث مع ابن خلدون بل استكتبه تقريراً جامعاً.

كان تيمور ظالماً وجاراً في حق أهل دمشق، فحطم المدينة وحرق مسجدها الكبير رغم جنوح أهلها إلى الصلح، ولكنه أكرم ابن خلدون وقدره حق قدره، وذلك لأن ابن خلدون أثبت بعلمه الممتاز عن التاريخ والجغرافيا أنه دليل في غاية الأهمية لتيمور.

فلو أثبت الإنسان فائدته سيصبح محترماً في أنظار الكل، بل وحتى في أنظار عدوه الظالم الفتاك. فكونك مفيداً ونافعاً يجعل حتى الوحوش يكرمونك، وينحني أمامك حتى الملوك.

## الحل السهل

● كان الشاعر أَلطاف حسين حالي (١٨٣٧ - ١٩١٤) يملك عقلية ثورية، وبدأ حركة الإصلاح في الأدب الأردني، ونقد الشعر الأردني القديم بقسوة لدرجة أنه قال فيه: إنه عَلَّمَ على المبالغة والعشق والأوهام الافتراضية لا أكثر. . ونادى «حالي» بأن يكون الشعر هادفاً، وقَدَّمَ نموذجاً للشعر الذي كان ينادي به في صورة ديوانه «المُسَدَّس» .

واستاء بهذه الحملات الذين كانوا يعتززون بالشعر الأردني ويعشونه، فأخذت صحف ذلك الزمان تنشر مقالات مقززة حول «حالي» . وكانت صحيفة «أَوْدَه بَنَشْ» - التي كانت تصدر في لكتناؤ- تنشر عنه كتابات لاذعة، وتزينها بأبيات شعر مقذعة .

ولم يردَّ «حالي» على هذه الحملات الهوجاء، وانكب في عمله بدون أن يتأثر بها . . فلم تمضِ بضع سنين حتى سكت المعارضون . ووجه بعضهم سؤالاً إلى «حالي»: كيف سكت معارضوك؟ فردَّ حالي على هذا السؤال ببيت شعر له معناه: «لقد قالوا كل شيء ولكنني لم أردْ بشيء» .

إن الردَّ السهل والناجح على المعارضات الكاذبة هو ألا تحفل بها . فالمعارضات الكاذبة تقوم بلا أساس، وقدرها أن تنهار تلقائياً . والردُّ على معارضة كهذه بمشابهة مدَّ عمرها . ولو صبر الإنسان فسينهار هذا الشجر - الذي لا جذور له - من تلقاء نفسه . فلا قرار لأشجار كهذه على أرض الله .

والزمن أكبر قاتل للكذب . . فعليك بالترّيث وانتظار الغد القادم، وسترى أن الزمن قد قضى على الفتنة قضاءً مبرماً، بينما كنت تخطط للقضاء عليها بتدابيرك الناقصة ووسائلك المحدودة .  
وصلاح هذا التدبير لا ينحصر في قضية دون غيرها، فهو ناجح في كل القضايا التي تتحلّى فيها بالصبر.

● كتب بعض المسيحيين على جسور مدينة دهلي وجدرانها فقرة «المسيح قادم قريباً» Jesus is coming soon . وانفعل بعض شباب الهندوس إزاء هذا الشعار، فخرجوا ليكتبوا على كل الجدران أمام الشعار: «ليصير هندوسياً» .

ولو وقع شيء كهذا مع المسلمين في مدينة ما، لخرج بعض رجالهم السطحين يقولون بأن هذه إهانة للرسول وللمسلمين، وأنه تحدٍ لغيرتنا كأمة . . وبالتالي ينفعل شباب المسلمين ويقوم برّد فعل مضاد، ويؤدي هذا كله إلى إشعال نيران اضطرابات ضائفة . وعندها سينبري الزعماء المسلمون للإدلاء ببيانات نارية؛ لإثبات عدم كفاية المسؤولين عن إدارة المدينة، وسيفتح البعض منهم حملة اكتاب لإغاثة المنكوبين في الاضطرابات؛ ليقال إنهم مهتمون بخدمة المسلمين، وستنشر أخبار حارة مثيرة في صحف المسلمين لتقفز مبيعاتها . . بينما عامة المسلمين لن يزدادوا إلا دماراً وتحطماً. أما المسيحيون فلم يهتموا بهذه الشعارات فتحول هذا الحدث إلى لا حدث .

وقفت في ١٩ فبراير ١٩٩٠ على الجسر أمام فندق أوبيروي بداهلي وكانت جدرانها مليئة بهذه الشعارات والشعارات المضادة، وكانت

السيارات تمرُّ بسرعة على طرفي الجسر ولم يكن أحد من ركابها يهتم بالأمر حتى يوقف سيارته ليقراً الشعر والشعار المضاد . وكانت هذه الشعارات تنتظر الأمطار وعواصف الرياح لتمحوها قبل أن يتأثر بها أحد .

والذين يشورون إزاء إثارات لا قيمة كهذه فيمهدون السبل للإضطرابات الطائفية هم أجهل كل الجاهلين .



## واقعة صغيرة ودرس كبير

ولد الشيخ سيد أمير علي (١٨٥٨ - ١٩٢١) بمدينة مليح آباد وتوفي بلكناؤ بالهند . ولم يتمكّن من مواصلة دراسته بعد المرحلة المتوسطة (الإعدادية) ، فأخذ يبحث عن وظيفة إلى أن عُيّن ناظر مكتب البريد بهارايتش . وتعلم أمير علي شيئاً من الإنجليزية للسوفاء بمتطلبات وظيفته ، وانهمك في عمله .

وكان سيد أمير علي مواظباً على الصلاة نتيجة التربية التي تلقاها من والديه ، وإذ هو غائب ذات يوم لأداء صلاة الجمعة في المسجد حضر موظف كبير بهيئة البريد للتفتيش على مكتبه ، وغضب غضباً شديداً حين لم يجد ناظراً المكتب حاضراً في مكان عمله ، ووصل الخبر إلى أمير علي وهو يتوضأ بالمسجد ، فلم يأبه به ، بل أكمل صلاته بكل طمأنينة ثم عاد إلى المكتب .

وحاول المسؤول المذكور مساءلته فلاذ أمير علي بالصمت ، فلم يردّ عليه ، ولم يعتذر له ، بل أخذ ورقة وكتب عليها استقالته وأعطائها للمسؤول ثم عاد إلى بيته .

ولم يكن سيد أمير علي يعرف آنذاك إلا اللغة الأردية وشيئاً من الإنجليزية ، وكان يجهل العربية والفارسية . وهزته الاستقالة بأنه لا يعرف شيئاً عن الدّين الذي استقال من وظيفته من أجله ، لدرجة أنه

غير قادر على الردّ على سؤال ما حول دينه . وقال في نفسه : أنا أصلي ولكن لا أفهم معنى الصلاة ولا أعرف شيئاً عن القرآن والأحاديث . .  
وهنا تولدت في أمير علي همة جديدة، فقرر دراسة العربية والفارسية، وبرع في اللغة العربية حتى أصبح من كبار علماء عصره، وعيّن في منصب «شيخ الحديث» بكلية دار العلوم لندوة العلماء بلكنائ، كما كان كبير المدرسين بالمدرسة العالية بكلكتوتا . وكان ذا صلة بمطبعة المنشى نول كِشور، فترجم أمهات الكتب العربية مثل : صحيح البخاري والفتاوى العالمكيرية إلى الأردية .  
لو كان بداخل الإنسان حياة فإن واقعة عادية تحركه ليقوم بالأعمال الجليلة . أما لو لم تكن فيه حياة فستقع عليه الوقائع العظام وهو سيظل جسداً هامداً لا يعي شيئاً ولا يأخذ درساً .



## «أنا غير منطِن»

قُدِرَ عدد الكتب التي أُلِّفَت حول هتلر منذ وفاته سنة ١٩٤٥ باللغة الإنجليزية وحدها بـ ٥٥ ألف كتاب! ومن أحدث هذه الكتب «مخبأ برلين» Berlin Bunker الذي صدر بلندن .

وكان هتلر قد قضى آخر أيامه الـ ١٠٥ بمخبأ عسكري ببرلين . وقد حصل مؤلف هذا الكتاب على معلوماته من زملاء هتلر ومعاونيه . وكان هتلر قد تراجع إلى هذا المخبأ في ١٦ يناير ١٩٤٥ حين دكت برلين ألف طائرة أمريكية . وكانت حالته قد ساءت لدرجة أنه كان يبدو ابن سبعين سنة بينما عمره لم يتجاوز عن ٥٥ عاماً، وكان هاجسه الدائم أن القوات الروسية المتقدمة ستمسك به . وأخذ كل شخص يخلذه في هذه الأيام الأخيرة إلى أن لم يبق معه إلا كلبه .

وكانت حكومة هتلر قد قامت منذ بدايتها على العنف، وبالتالي كان هتلر خائفاً من الاغتيال في كل لحظة، ويقال إن هتلر تعرض لـ (٢٥) محاولة اغتيال خلال سنوات ١٩٣٩-١٩٤٥ ، ولكنه كان ينجو من هذه المحاولات دائماً، ولم يكن هتلر يحيط نفسه بتدابير أمنية ضخمة، بل كان مزاجه هو أن يغير برنامجه في آخر لحظة . ويقول البروفيسور هافمان : كان هتلر يقرر برنامجه في بعض الأحيان بتطير قطعة نقدية في الهواء ويتخذ القرار حسب الوجه الذي تستقر عليه القطعة عند سقوطها على الأرض .

ويقول زملاؤه : لم يعترف هتلر حتى لحظاته الأخيرة بأنه أخطأ ،  
وكان يلقي تبعة المسؤولية عن كل شيء على جنرالاته واليهود  
والشيوعيين . . بل وكان يتهم حتى شعبه . وحين يؤس هتلر نهائياً من  
كل شيء انتحر بتناول حبة السيانيد .

ليس هناك من أحد في العالم يعترف بخطأه . . حتى هتلر الذي  
أجمع العالم كله على خطأه لا يعترف بذلك . والإنسان لا يعرف أنه  
سيأتي عليه عما قريب وقت يضطر فيه على الاعتراف بخطأه ، وإن لم  
يعترف بلسانه فإن جوارحه ستشهد عليه ، وهو لن يقدر على منعها من  
ذلك . .



## قوة الاتحاد

ولد تايكوبراهي سنة ١٥٤٦ م وتوفي بمدينة براغ سنة ١٦٠١ م .  
وولد يوحان كييلر سنة ١٥٧١ م وتوفي بمدينة ورتمبرغ سنة ١٦٣٠ م .  
وكان كلاهما مولعاً بالبحث في علم الفلك ، ولكن لم يكن أحد منهما قادراً على أن يكتشف بمفرده حقيقة عظيمة من حقائق الفلك .  
وكان تايكوبراهي وكييلر معاصران ، وكان كلاهما يواجه عقبة معينة تحول دون اكتشاف فلكي كبير ، وهي تتمثل في أن أياً منهما لم يكن خبيراً بكل جوانب موضوعه . وكان تايكوبراهي قد قام بمشاهدات فلكية على نطاق واسع ، وكان يسجل مشاهداته بانتظام إلى أن تجمعت لديه ذخيرة كبيرة من المشاهدات الفلكية ، ولكن الجانب الآخر من علم الفلك يتعلق بالرياضيات ، وكان تايكوبراهي ضعيفاً في هذا المجال ، فلم يكن قادراً على ربط مشاهداته بكلية الرياضيات . أما كييلر فلم يكن خبيراً بالمشاهدات الفلكية ، فكان حظه قليلاً ، من هذا الجانب الهام من دراسة علم الفلك ، ولم يكن قد استخدم المنظار رغم أنه كان قد اخترع في زمنه ، إلا أنه كان يمتاز بخبرته بالرياضيات ، وكان قد وضع نظريات قيمة في علم الفلك من الناحية الرياضية .

وهنا أفادت سعة ظرف تايكوبراهي وكرمه . وكانت هناك خلافات ذاتية بين تايكوبراهي وكيبلر لدرجة أن كيبلر اتهم معاصره في إحدى رسائله بالنفاق ، إلا أن تايكوبراهي رغم مزاجه الحاد لم يغضب من كيبلر، بل رأى في آخر أيامه أن كيبلر خير وارث لذخيرته العلمية ، فاستدعاء متناسياً تطوالته السابقة وأعطاه كل ذخيرته من المشاهدات المكتوبة بدون مقابل .

وحين توفرت لدى كيبلر ذخيرة مشاهدات تايكوبراهي ثم تلافى ما كان يعانيه من نقص ، فصرف قواه العقلية لربط تلك المشاهدات بالرياضيات ، ونتج عنه ثلاث كليات تعرف بـ «قوانين كيبلر حول تحرك الكواكب» . واستخدام إسحق نيوتن (١٦٤٣ - ١٧٢٧) هذه القوانين فاكشف قوة الجاذبية .

وهذا هو سر أي نجاح في هذه الدنيا ، فلكل إنسان حدود ، ولا يمكنه أن يقوم وحده بعمل عظيم . فالعمل العظيم لا يتحقق إلا حين يرضى عدة أشخاص بتسخير كفاياتهم وتوجيه جهودهم نحو هدف واحد . ولا سبيل إلى القيام بأمر عظيم في هذا العالم بدون تضافر الجهود .

ولكن الجهود المتواترة تتطلب ثمناً ، وهو الثبات والمثابرة على الاتحاد ، بغض النظر عن قضايا الاختلاف ، والإصرار على الاتحاد رغم الاختلاف .

والاختلاف مما لا مناص منه في صفوف البشر ، فيحدث الخلاف بين الناس رغم إخلاص الكل ، ولا سبيل إلى النجاة من الخلاف .

والحل العملي هو أن يعدّ الناس أنفسهم للاتحاد رغم ألف اختلاف ،  
وأن ينسوا الجوانب الفردية الذاتية لأجل المصلحة العامة الاجتماعية ،  
وأن يتغاضوا عن الأشياء الصغيرة من أجل الأشياء الكبيرة ، وأن يذنبوا  
متطلبات ذاتهم لأجل متطلبات الهدف الاجتماعي المشترك .

وهذا هو علو الهمة وسعة الظرف ، ولا يمكن تحقيق مخطط عظيم  
في العالم بدون هاتين الصفتين .

❦ ❦ ❦

## قضية الحياة

ولدت غريتا غاربو بالسويد في ١٨ سبتمبر سنة ١٩٠٥ ، وتوفيت في الولايات المتحدة في ١٥ أبريل سنة ١٩٩٠ . وكانت تبحث عن الشهرة فاتجهت إلى عالم السينما ، وأحرزت نجاحاً كبيراً كممثلة ، لدرجة أنهم يشيرون إليها بوصف معبودة الشاشة .

وحصلت غريتا على الثروة والشهرة معاً بعملها في الأفلام ، ولكن هذا سلب منها شخصيتها ، فكانت خاضعة تماماً لرغبات وأوامر المتحكمين في عالم السينما ، الذين كانوا يعيّنون لها كيف تقص شعرها ، وماذا تلبس ، وكيف تتحدث ، وكيف تمشي . وكانوا يغيرون ملامح وجهها ، المرة بعد الأخرى ، بالمكياج . وكان عليها تدليك جسدها بصورة مستمرة لكي تحافظ على رشاقتها وخفتها . وقد سئمت غريتا من هذه الأشياء لدرجة أنها كانت تبكي وتصرخ في وحدتها ، إلا أنها كانت عاجزة عن القيام بشيء نتيجة سيطرة رجال السينما على حياتها .

ووصل بها الأمر سنة ١٩٤١ إلى الانسحاب من عالم السينما نهائياً ، وقضت بقية عمرها وحيدة داخل بيتها إلى أن ماتت عن ٨٤ سنة ، فانتهدت حياة الشهرة على موت مغمور .

وكانت غريتا تريد أن تموت بصمت ، ولكن تمكن الكاتب أنطوني غرونوويتش بصعوبة من حملها على السماح له بكتابة سيرة حياتها وأن تخبره بأحوالها . ووافقت غريتا بعد إلحاحه الشديد بشرط أن يُطبع مثل

هذا الكتاب بعد وفاتها . وهكذا أُعدَّ الكتاب ولكن المؤلف مات سنة ١٩٨٥ عن ٧١ سنة ، بينما كانت غريتا لم تزل على قيد الحياة . وتمَّ نشر هذا الكتاب بعد وفاتها بقليل في الولايات المتحدة بعنوان «غاربو: قصتها» .

وقد نشرت صحيفة تايمز الهندية اقتباسات من هذا الكتاب في عددها الصادر في ٩ سبتمبر ١٩٩٠ . وطبقاً لهذا الاقتباسات قالت غريتا للمؤلف في آخر عمرها : «فقدت إيماني بالناس وحتى بالله ، الذي وضعني في هذا الموقف بدون أن يجيب بوضوح على أسئلتني . وأنا أطفوا على مياه الحياة بدون اتجاه وبدون هدف وبدون معرفة السبب والمدة التي ستسغرقها حياتي هذه» .

إنها قصة امرأة تركت الله تعالى وجعلت غير الله مركز آمالها ، ولم تشعر بالسكينة ، وعاشت هذه الحالة من القلق إلى أن قضت نحبها بعد خمسين سنة .

وما وقع لغريتا غاربو قد يعتبر أمراً في منتهى الغرابة ، ولكن الحقيقة هي أن الكل منا يواجه هذا الموقف من ناحية أو أخرى . فالكل يلهث وراء غير الله ، وحين يظفر بطلبه يكتشف أن ذلك الشيء لم يكن جواباً لطلبه ، فقد جعل مقصوده ومطلوبه شيئاً ما كان ينبغي أن يكون هدفه في حقيقة الأمر .

كل إنسان يبدأ مسيرة حياته ظاناً أنه يقترب بسرعة من هدفه النهائي ، وحين يصل إلى ذلك الهدف يكتشف أنه لم يكن هدفاً بل حفرة وقع فيها حاملاً أمانيه وآماله .



## درس من التاريخ

تقول لنا التوراة أن عائلة سيدنا يوسف كانت تتكون من ٦٧ شخصاً حين وفدت على مصر بدعوته عليه السلام. ولا يشمل هذا العدد النساء اللواتي انضممن إلى أسرة سيدنا يعقوب عليه السلام بالمصاهرة. وجاء موسى عليه السلام بعد وفاة يوسف بنحو ٥٠٠ سنة. وحين خرج بنو إسرائيل من مصر معه كان عددهم يبلغ مئات الألوف. وتقول التوراة أنه طبقاً للإحصاء الذي أجراه سيدنا موسى بعد ستين من خروجه من مصر، وهو بصحراء سيناء، كان عدد الرجال القادرين على الحرب يبلغ ٦٠٣,٥٥٠ رجلاً. وهذا يعني أن العدد الكلي لبني إسرائيل، بما فيه النساء والرجال والأولاد والشيوخ، كان يقارب المليونين.

ومن الواضح أنه لا يمكن أن يصل عدد أخلاف (٦٧) شخصاً إلى مليونين بمجرد التوالد والتناسل الطبيعي عبر خمسمائة سنة. لقد زاد عدد بني إسرائيل بهذه النسبة غير العادية من جراء التبليغ. فالمصريون الذين غيروا ديانتهم من جراء تبليغ بني إسرائيل اصطبغوا بصبغة بني إسرائيل الثقافية. وتطلق التوراة على هؤلاء المؤمنين الجدد وصف «خراف مخلوطة». وحين خرج بنو إسرائيل من مصر كان معهم إخوانهم في الدين هؤلاء.

ونعرف عن بني إسرائيل أنهم كانوا شعباً مغلوباً على أمره ومحكوماً في مصر. وكان المصريون يستخدمونهم كعبيد وأجراء، بينما الأقباط كانوا على القوم ونخبتهم المكرمة. أما بنو إسرائيل فكانوا - في مقابل هذا - محتقرين ومقهورين لا أهمية لهم في المجتمع. وتمكّن بنو إسرائيل رغم هذا من التأثير في كثير من الأقباط، الذين نبذوا دين فرعون وآمنوا بدين موسى. وهذا يكشف أن الدين الحق قوة أكبر من كل القوى الدنيوية، وأن الدين الحق يستقطب الناس حتى في أحوال يبدو فيها ضعيفاً عاجزاً عن التأثير في الناس.

وطلب الدين الإلهي كامن في الفطرة البشرية، وهذا هو السر لقوته. فالدين الإلهي يغزو قلوب البشر بقوته الذاتية وليس بسبب قوة المؤمنين القومية أو المادية.

❦ ❦ ❦

## شاهدان

كان الحاج إمداد الله المكي (١٨١٧ - ١٨٩٩) من كبار مشايخ الهند. وكان أسلوبه أنه كلما نقل إليه شخصٌ ما خبراً سيئاً حول شخصٍ آخر، بادره قائلاً: ائتني بشاهدين. وحين يفشل ذلك الشخص في إحضار شاهدين تصديقاً على دعواه، كان يُنهي القضية في مكانها، قائلاً: لاعبرة لكلامك؛ لأنك لا تملك شاهدين لتصديق ما تدعيه.

وهذا هو عين الأسلوب الشرعي. وقد وضع الإسلام مبدأ الشهادة لإثبات الدعاوى في المعاملات؛ أي أنه من المطلوب من كل مدعٍ في المعاملات والقضايا الأخرى الماثلة أن يأتي بشاهدين، أما في قضية الزنا فالمطلوب أن يأتي بأربعة شهداء.

ولو وجّه شخص ما تهمة ضد الآخر فمن مسؤوليته - انطلاقةً من المبدأ الشرعي القائل بأن البيّنة على المدعي - أن يقيم الدليل على ما يدعيه، وسيكون كلامه بلا معنى لو أخفق في تقديم الدليل الشرعي. وقد انعدم هذا المبدأ في العصر الحالي نتيجة فساد الأمزجة. والإنسان لا يرى أن هناك حاجة لأي دليل مطلقاً للإيمان بأي شيء ضد شخص يشكو منه أو يعاديه، وهو يعترف بأي شيء يقال ضد ذلك الشخص، فلا يطلب بيّنة ولا شاهدين.

وقد عمَّ هذا الفساد حتى في الخواص ناهيك عن العوام، وحتى «الأكابر» ليسوا استثناءً من هذا. ولم أسمع أنا على الأقل في حياتي عن شخص أن تهمة وجهت أمامه ضدَّ أحد معارضيه فطلب من المُتهم أن يأتي بشاهدين لإثبات اتهامه وإلا رُفِضَ كلامه.

وكانت العظمة تعني في قديم الزمان ما يعكسه المثال الأنف الذكر، أما اليوم فقد تغير مفهوم العظمة، فأكابر القوم يصدقون أخرق التُّهم دون شاهد ولا دليل، ورغم ذلك لا تتأثر عظمتهم، بل يظنون شخصيات مقدسة في نظر الناس.

